التصوف ومحبة الله

للأستاذ حسنه كامل الملطاوى

وكيل وزارة الخزانة

جاء فى الرسالة القشيرية ما خلاصته :

المحبة حالة شريفة شهد بها الله تعالى وأخبر عن محبته للعبد . فالله سبحانه يوصف بأنه يحب العبد والعبد يوصف أنه يحب الله جل وعلا .

وإرادة الله تعالى لأن يوصل إلى العبد الثواب والأنعام تسمى رحمة ، وارادته تعالى لأن يخصه بالقربة والأحوال العلية تسمى محبة .

وارادته سبحانه صفة واحدة وبحسب متعلقاتها تختلف أسماؤها ، فإذا تعلقت بالعقوبة تسمى غضبا ، وإذا تعلقت بعموم النعم تسمى رحمة ، وإذا تعلقت بخصوصها تسمى محبة ، وعلى هذا فالرحمة خاص من الإرادة والمحبة أخص من الرحمة.

أما محبة العبد لله تعالى ، فحالة يجدها من قلبه تلطف عن العبادة ، وتحمله هذه الحالة على تعظيمه تعالى وإيثار رضاه وقلة الصبر عنه والاهتياج إليه وعدم القرار من دونه ووجود الاستئناس بدوام ذكره له بقلبه .

بعض ما عبر به الصوفية عن المحبة :

عبر الصوفية عن المحبة بحسب ما وقع لكل منهم ، وقد تخيرت لكم بعض ما قالوه فيها :

قال قائل منهم :

المحبة هى الميل الدائم بالقلب الهائم .

وقال أبو اليزيد البسطامى :

هى استقلال الكثير من نفسك واستكثار القليل من حبيبك .

وقال أبو على الروذبارى :

المحبة الموافقة .

وقال أبو عبد الله القرشى :

حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببت فلا يبقى لك منك شىء .

وقال الشبلى :

سميت المحبة محبة لأنها تمحو من القلب ما سوى المحبوب .

وقال سمنون :

ذهب المحبون لله تعالى بشرف الدنيا والآخرة لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال المرء مع من أحب فهم مع الله تعالى .

وقال يحيى بن معاذ :

ليس بصادق من أدعى محبته ولم يحفظ حدوده .

وقال بندار بن الحسين :

رؤى مجنون بنى عامر فى المنام فقيل له ما فعل الله تعالى بك ، فقال غفرلى وجعلنى حجة على المحبين .

وقال الحارث المحاسبى :

المحبة ميلك إلى الشىء بكليتك ثم ايثارك له على نفسك وروحك ومالك ثم موافقتك له سرا وجهرا ثم علمك بتقصيرك فى حبه .

وقد كتب يحيى بن معاذ إلى أبى يزيد : سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبته ، فكتب إليه أبو يزيد : غيرك شرب بحور السموات والأرض وما روى بعد ولسانه خارج ويقول هل من مزيد .

وجاء فى أقوال أستاذى الملهم العارف بالله الشيخ على عقل رضى الله عنه (توفى سنة ١٩٤٨) ما يقرب لكم فهم ما يقوله أبو يزيد :

أنا لو أشرب البحار جميعا ... لم أزل فى محبتى ظمآنا

لست أروى إلا بلقياك يارب ... فهذا اللقاء أسمى رجانا

وقال أبو بكر الكتانى :

جرت مسألة فى المحبة بمكة أيام الموسم فتكلم الشيوخ فيها وكان الجنيد أصغرهما سنا ، فقالوا له هات ما عندك ياعراقى ، فأطرق رأسه ودمعت عيناه ثم

قال : عبد ذاهب عن نفسه ، متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، أحرق قلبه أنوار هويته ، وصفا شربه من كأس وده ، وانكشف له الجبار من أستار غيبه ، فإن تكلم فبالله ، وان نطق فعن الله ، وان تحرك فبأمر الله ، وان سكن فمع الله ، فهو بالله ولله ومع الله .

فبكى الشيوخ وقالوا ما على هذا مزيد جبرك الله تعالى يا تاج العارفين .

وحكى عن أبى سعيد الخراز أنه قال : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فقلت يارسول الله أعزرنى فإن محبة الله تعالى شغلتنى عن محبتك ، فقال يا مبارك من أحب الله تعالى فقد أحبنى .

وقالت رابعة العدوية فى مناجاتها : الهى أتحرق بالنار قلبا يحبك ؟ فهتف بها هاتف ، ما كنا نفعل هكذا فلا تظنى بنا ظن السوء .

الحب مزاق والتعاريف دالة عليه :

لعل التعاريف المتقدمة تكون ألقت لكم شعاعا على الحب الآلهى الذى يسمو فى الواقع عن التكييف والتعريف ولا يعرف على حقيقته إلا بالمذاق .

ويعجبنى ما يقوله فى هذه المناسبة الأخ الأستاذ طه عبد الباقى سرور الكاتب الصوفى المعروف فى كتابه « رابعة العدوية » .

« والتصوف حقائق ورقائق ودقائق مستقرها القلب ومستودعها الروح ومبعثها الحب وتاجها فيوض من الله تتوالى ، وجماع ما يقال فى مقاماته وأحواله أنها يقظة فى الوجدان والمشاعر والحس ، يقظة فوارة بالعاطفة جياشة بالحركة متوثبة بالتطلع والتأمل والتفكر فى آفات القدرة وآيات العظمة وسمات الرحمة .

« وانفساح فى القلب حتى يرى مكاشفة ببصيرته ما يبصر الناس وما لا يبصرون من مكنون عجائب الله وآياته ومعارفه والهاماته واتساع فى الروح وقوة حتى تهيمن وتسود وتشرق وتزكو ، والروح من أمر الله ونفخة من روحه .

« وحسبنا هذا فالكلام هنا أدق من شعرة الصراط وأرق من نسيج الزهر لا تحتمله الآذان ولا تصبر عليه العقول وانما نضع فوق الأبصار والآذان والعقول الآية الربانية الناطقة بمقامات المحبين :

« لهم ما يشاءون عند ربهم » .

تفاوت الناس فى المحبة :

ويتفاوت الناس فى المحبة بتفاوت ايمانهم ، فكلما زادت معرفتهم بالله زادت محبتهم وإليكم الأدلة الشاهدة على ذلك من الكتاب والسنة .

يقول الله تعالى :

« ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله . . . » .

ويقول أيضا :

« يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » ، وقد ربت حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم على كتف سلمان الفارسى رضى الله عنه حين نزلت هذه الآية وقال هذا وذووه ، ونظرا لأن الصحابة رضوان الله عليهم لم يرتدوا عن دينهم فقد ثبتت محبة الله لهم ومحبتهم له تعالى .

« قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » .

وعلى قدر حرص المؤمن على اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم تكون درجة محبته لله تعالى .

ويقول :

« ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير » . وتفيد هذه الآية أن أعلى الناس درجة فى المحبة هم السابقون بالخيرات باذن الله .

وعن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه الا لله وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار » متفق عليه .

كيف يتدرج المؤمن فى المحبة :

أساس المحبة الايمان بالله ، والايمان علم وعمل يزيد وينقص ، ولايزيد الايمان الا بالأنس بالله ، ولا يتأتى هذا الأنس الا بقطع الشواغل عنه سبحانه وتعالى . فاذا انقطعت الشواغل خلا القلب بربه وذاق المؤمن لذة المناجاة واطمأن بالله (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) .

ومن ذلك تعلمون أن المؤمن يكون بين الناس ولكنه يختلف عنهم فى مذاقه وأنسه ، وهذه حالة روحية سنية تتأتى للمؤمن بعد مجاهدات طويلة لا يدركها إلا المحبون .

نالوا مرادهموا بحب حبيبهم ... وتمتعوا بدنوه ووصاله
وعليهم ظهر الجمال لأنهم ... بقلوبهم نظروا الحسن جماله
وبه قد اشتغلوا ويا طوبى لمن ... قد أصبح المحبوب من اشغاله

وقد سئل بعض الحكماء ما الذى قطع الخلق عن محبة الخالق بعد أن عرفوه سبحانه ؟ فقال : لم يقطع الخلق عن محبته عز وجل الا حب الدنيا وزينتها لأنها محل الذنوب والمعاصى ، والعاقل من رمى بالدنيا عن قلبه وتاب إلى الله من ذنبه واقبل على ما يقربه من حبه اشتغالا بكثرة ذكره .

وإذا خلصت محبة المؤمن لربه نور الله باطنه وكان الله منه ملء السمع والبصر ، وفى هذا المقام يقول أخى فى الله الصوفى المعاصر الأستاذ أحمد عبدالمنعم عبد السلام الحلوانى فى مقدمة مؤلفه « السمو الروحى فى الأدب الصوفى » :

« هو الذى نور باطن المؤمنين بهديه وشعشع أرواحهم بحبه وسر بلهم بسر بال جلاله وأسكرهم من خمر جماله وأفاض عليهم من فيض أنسه وأطعمهم من لذيذ وصاله فغابت نفوسهم عن المحسوسات واستظلت بعرش الغيب فظلت فى سر المكنونات فلم يأنسوا الا بنوره سبحانه وتعالى ولم يروا حركة ولا سكونا فى الأكوان كلها دقت أو جلت ظهرت أو خفيت الا من تأثير ارادته فوهبوا أنفسهم وأنفاسهم لنور معرفته ورأوا سر قيموميته ساريا فى جسد الأكوان فنظروا إلى نورها

فغابوا عن الحسن إلى حقيقة المشاهدة وفناء القرب، أولئك الذين اصطفاهم الله لحضرته وأصطنعهم لذاته وسيرهم فى الخلق على عينه سير المحبة والعناية والاختصاص وحفظ قلوبهم عن الأغيار وهيا كل أرواحهم من الأشرار وكان منهم مل السمع والبصر».

وأنتم ترون مما تقدم أن المحبة تأخذ بيد المؤمن وتتدرج به صعدا حتى يصل الى مقام المقربين الذين اصطفاهم الله لحضرته واصطنعهم لذاته ويالها من سعادة أبدية.

فاذا وصل المحب الى هذا المقام الكريم لم يرج جنة ولم يخف نارا وانما يرجو رب الجنة ويخاف رب النار ولا يسكن أنينه وحنينه حتى يلقى الله راضيا مرضيا.

لذلك لما قيل لرابعة العدوية أم المحبين رضى الله عنها، ما تقولين فى الجنة قالت الجار ثم الدار.

وقد قالت حين سألها سفيان الثورى ما حقيقة ايمانك، قالت ما عبدته خوفا من ناره ولا حبا فى جنته فأكون كالأجير السوء بل عبدته حبا له وشوقا اليه وأنشدت:

أحبك حبين حب الهوى ... وحبا لأنك أهل لذا كا
فأما الذى هو حب الهوى ... فشغلى بذكرك عمن سوا كا
وأما الذى أنت أهل له ... فكشفك لى الحجب حتى أرا كا
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ... ولكن لك الحمد فى ذا وذا كا

ويفسر الإمام الغزالى ارادتها الهوى بحب الله لاحسانه اليها وانعامه عليها بحظوظ العاجلة، وحبه لما هو أهل له بالحب لجماله وجلاله الذى انكشف لها وهو أعلى الحبين وأقوهما.

علامة المحبة:

يقول الله تعالى مخاطبا حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم:

«قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم».

وقد وضع الله بهذه الآية الكريمة علامة الحب حتى لا تستتر على مؤمن يرجو محبة الله.

واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم بينت قاعدته الكبرى الآيه الكريمه :

« وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »

أما فروع هذه القاعدة فقد رسمتها الشريعه الغراء التى قال فيها حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم « لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها الا هالك » .

ولم تنل شريعة من الشرائع عناية فى تدوينها وضبطها كما نالت الشريعة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم . واننا لنحنى رؤوسنا اعجابا بهمة الأئمة المجتهدين وأصحاب السنه والمفسرين ، فقد فسروا لنا بعملهم الخالد فهم الدين وابتغوا بذلك وجه الله ولم يريدوا منا جزاء ولا شكورا .

روحانيه الاتباع :

وليس المقصود بالاتباع أن يكون اتباعا شكليا لا روح فيه فعبادة الشكل عبادة آلية لا تؤتى ثمرها وإنما المراد أن يكون الاتباع صحيحاً فى شكله وتصاحبه روحانية صوفية أصلها ثابت وفرعها فى السماء .

ويقول عبقرى الشاعرية الصوفية جلال الدين الرومى فى توضيح الفرق بين المتمسك بالحروف والقشور والغائص إلى الروح والمعانى :

« هل قطفتم وردا من الواو والراء والدال » .

« أنتم تسمعون اسمه اذهبوا فابحثوا عن حقيقة المسمى » .

« لا تنظروا إلى القمر فى الماء بل إلى القمر فى السماء » .

« ان أردتم أن تترفعوا عن الأسماء والحروف » .

« تطهروا من جميع صفات النفوس » .

« حتى تروا وجودكم النورانى » .

« نعم ترون فى قلوبكم علم النبى » .

« دون كتاب أو معلم أو مرشد » .

حسن كامل الملطاوى